العنوان:	محمد ابن تاويت الطنجي مشروع رسالة وذكريات من الماضي
المصدر:	أعمال الندوة التكريمية التذكرية للعلامة محمد بن تاويت الطنجي
الناشر:	مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة
المؤلف الرئيسي:	بنمنصور، عبدالوهاب
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1997
مكان انعقاد المؤتمر:	طنجة
الهيئة المسؤولة:	مدرسة الملك فهد العليا للترجمة
الشهر:	مايو
الصفحات:	25 - 36
رقم MD:	576804
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	محمد بن تاويت الطنجي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/576804

محمد ابن تاويت الطنجي
مشروع رسالةٍ وذكرياتٌ من الماضي

عبد الوهاب بنمنصور*

حضرات السادة والسيدات

لما وجه إليَّ الأستاذ البحاثة أحمد الطريبق الدعوة لحضور اليومين الدراسيين عن العلامة المرحوم محمد ابن تاويت الطنجي إحياءً لذكره، وتنويهاً بعلمه وأدبه، ترددت في قبولها مخافة أن تعوقني ظروف عملي عن الحضور فأكون من الذين يعدون فيخلفون، وحز في نفسي هذا التردد، لما كان يصلني بالأستاذ ابن تاويت من صلات مودة وتقدير، ويجمعني وإياه من ذكريات ترجع إلى السنوات الثلاثينية يوم كنا نطلب العلم بجامع القرويين، ذلك المعهد الذي كان يعد مع غيره وأكثر من غيره الأجيال التي ستضطلع بالكفاح مسترخصة التضحية لتحرير المغرب من مستعبديه، كما ستضطلع بالمحافظة على القيم الإسلامية والعربية لشعبه، وإبراز مآثره وأمجاده، وما كان له من حضور وحظوظ في خدمة الحضارة ونشر المعرفة.

وإذا كان المرء - أي امرئ - يقف مشدوهاً أمام بعض الأسباب

---

* مؤرخ المملكة وعضو أكاديمية المملكة المغربية

الخفية أو المفاجآت الغريبة التي تعترضه من غير أن تكون خطرت له من قبل على بال، أو أعد لها عدة عندما تفجأ وتبغت، فإن ما حدث لي يوم الخميس فاتح محرم، وأنا حائر بين قبول دعوة الأستاذ الطريبق بالحضور وبين الاعتذار له عن عدم تلبيتها بسبب أعتقد أنه يقبله، أقول إن ما حدث لي في ذلك اليوم أحسبه من الأسباب الخفية والأمور الغيبية التي تؤكد أن أرواح الأصدقاء والأخلاء تبقى متواصلة يتداعى بعضها إلى بعض حتى وإن كانت الأجساد التي تتقمصها بعضها مدفون تحت الثرى وبعضها يمشي على وجه الأرض ينبض بالحياة، لقد وجدتني أنساق في ذلك اليوم إلى تناول بعض محافظ مديرية الوثائق الملكية التي ترجع الوثائق المحفوظة بين دفاتها إلى السنوات السبعينية دون أن يكون لي سبب معين يدعوني إلى تناولها، وتصفح ما فيها من وثائق مخطوطة وأخرى مطبوعة، ولشد ما كانت دهشتي واستغرابي عندما وقعتْ عيني من بينها على وثيقة نسيتها وهي من إنشائي ومكتوبة بخطي، هي مشروع رسالة أمر جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله ونصره بكتْبها لترسل بعد تذييلها بإمضائه الشريف إلى فقيدنا المرحوم محمد ابن تاويت الطنجي، فصح مني العزم حينئذٍ وقويت النية على تلبية الدعوة، وقلت لا مناسبة أحسن من مناسبة هذا الملتقى الذي يجمعنا اليوم والغد الذي بعده لإطلاع الحاضرين الكرام على هذا السر المكنون، والتحدث عن تقدير جلالة الملك أعزه الله - ثقة بما كان يسمع من ثقاته - لعلم الفقيد وحسن تحقيقه وهو بقيد الحياة واهتمامه بمآل تراثه العلمي والفكري بعد الممات.

وقبل أن أتلو مشروع الرسالة الملكية مبيناً السبب الذي دعا إلى كتْبها أستحسن أن أشير إلى قضيتين اثنتين سبقتاها مما يتعلق بالعناية الملكية بالمرحوم محمد ابن تاويت، وحضوره في الذهن والرجوع إليه في قضايا تهم التاريخ والعلم الأدب في المغرب، الأولى هي اهتمام الديوان الملكي - بأمر جلالته - بتحسين حالته المادية أيام عمله بوزارة الشؤون الإسلامية التي كان يتولاها الأستاذ علال الفاسي فقد كانت تبلغنا في الديوان أخبار مقلقة عن ضائقته المالية، وسكنه في شقة غير مريحة لا تسعه وزوجه وبنته الوحيدة والكتب التي يرجع

إليها لتحضير محاضراته وكتْب مقالاته، وإعداد أبحاثه ودراساته القيمة التي اشتهر بها، وكنا نقوم بمساعي ونبذل جهوداً علّ الكربة تتنفس عنه، ونطمئنه بأن الحرج سيعقبه فرج، وأن العسر سيتلوه يسر، ترويحاً عن نفسه وتعليلاً لها بفسيح أمل لم نكن نرتاب في أنه سيتحقق في النهاية، وطال الأخذ والرد نظراً لقوانين المالية والوظيفة العمومية المعقدة والموروثة عن العهد الاستعماري، والتي لا يمكن تجاوزها، بعضها يتعلق بشروط الترسيم في الوظيف، وبعضها بتعادل الشهادات، وأيضاً لاستخفاف بعض المستلبين حواريي الاستعمار الذين لم يكونوا يعتبرون الفقيد العزيز أكثر من «فقيه» ولا يقيمون وزناً للعلم الذي يحمله، ولا للشهادة الجامعية التي يحوزها، لأنها معطاة من كلية شرقية وليست معطاة من كلية غربية لا سيما كليات فرنسا ومعاهدها العليا، وبينما المشكلة في طريق الحل إذْ بنا نفاجأ بقرار الأستاذ ابن تاويت الطنجي الرحيلَ عن المغرب والانتقال إلى تركيا للاستقرار الدائم بها، وأعتقد أن لزوجه أيضاً يداً في اتخاذه هذا القرار لأنها تركية الجنسية، ولا تجيد اللغة العربية ولم تستطع التأقلم مع المجتمع المغربي وأحست بغربة مضنية جعلتها تضغط عليه ليقرر الرحيل عن الأهل والوطن استجابة لها وترضية.

أما المسألة الثانية فهي إشارة جلالة الملك أعزه الله على وفد أرسله إلى تركيا بالاستعانة به، والاستفادة من معرفته بالبلد وخبرته بأهله، وخبر ذلك أن جلالته سافر في شهر محرم عام 1388 هـ (بريل سنة 1968م) إلى تركيا وإيران والمملكة العربية السعودية، وقبل أن يغادر جدة يوم الأحد 29 محرم – 28 أبريل متوجهاً إلى تونس في طريق عودته إلى المغرب عهد بمهمة في تركيا إلى ثلاثة ممن رافقوا زيارته للبلدان الإسلامية المذكورة، هم الزعيم المرحوم علال الفاسي، والوزير المرحوم محمد الفاسي، ومخاطبكم أحسن الله إليه فيما بقي من عمره كما أحسن إليه فيما مضى منه، وسافرنا نحن الاثنين، أنا والمرحوم علال الفاسي إلى بيروت بُعيْد مغادرة الطائرة لمطار جدة، فتعشّينا عند مفتي القدس المرحوم الحاج أمين الحسيني بقصره الفخم بأعالي بيروت، وزرنا في الصباح المجاهد الفلسطيني المرحوم محمد علي

الطاهر في بيته المتواضع حيث أعد لنا القهوة بنفسه، إذ كان يعيش فيه وحيداً تبدو عليه في وقت واحد عزة النفس ومظاهر الخصاصة والاحتياج، ثم سافرنا في نفس اليوم إلى إسطنبول حيث نزلنا في فندق هلتون الواقع في الساحة المسماة تقسيم ميدان، والتحق بنا فيما بعد المرحوم محمد الفاسي، وأحسسنا نحن الثلاثة من البداية بعسر المهمة التي جئنا بسببها إلى تركيا، فعاد الأستاذ محمد الفاسي أدراجه إلى المغرب، وبقيتُ والأستاذ علال الفاسي أسبوعاً ءاخر في إسطنبول نحاول عمل شيء في نطاق المهمة التي عُهد بها إلينا، وكان مما شغل بالنا البحث عن الأستاذ محمد ابن تاويت الطنجي الذي أمِرنا بالاستعانة بخبرته، ولكن أنَّى لنا أن نصل إليه في عاصمة الخلافة التي يعد سكانها بالملايين وليس معنا عنوان منزله ولا نمرة هاتفه؟ فبدا للأستاذ علال الفاسي أن نستقصي خبره من إحدى مؤسسات التعليم الديني التي يتكلم المعلمون بها اللغة العربية والذين قد يكون عندهم نبأ منه، فأخذنا سيارة أجرة ليقودنا سائقها إلى واحدة من هذه المؤسسات، وما أن جلسنا على مقعدها الخلفي حتى بدت صعوبة في التفاهم مع هذا السائق، نحن لا نعرف اللغة التركية ولا اسم المكان الذي نريد أن يوصلنا إليه ولا عنوانه، وهولا يتكلم غير لغته عكس أمثاله من السواقين الذين يعرفون عادة جملاً ومفردات من لغات متعددة، نظراً لتعاملهم اليومي مع الغرباء والسياح، فنفضنا كل ما في جعبتنا من كلمات عربية وفرنسية وأخرى إنجليزية وإسبانية لتفهيمه قصدنا ففهم بعد هياط ومياط وشفاعة من قريش، وأجابنا وعلامة الارتياح بادية على وجه – كأنما نشط من عقال أو نال جائزة في سباق – بكلمة تركية الصيغة مركبة تركيباً مزجياً، نصفها الأول عربي، ونصفها الثاني لاتيني : آه، إلاهيات فاكولتساسي، فأدركنا على الفور لذكائنا – تبارك الله! – أنه يعني كلية العلوم الإلاهية، أي الدينية، فقلنا له : هيا أسرع بنا إلى الإلهيات فاكولتساسي، فسار في اتجاه مسجد السلطان أحمد المشهور أيضاً باسم المسجد الأزرق، الذي تقع الكلية بجواره وحينما أوقف محرك السيارة نقدناه ضعف ما وجب من الأجر، فأخذه ورفع يده حتى وضعها على جبينه وهو يجمجم : كلو تمام

تشكرات أفندم.

وما أن دخلنا الكلية وسمع مديرها باسم أستاذنا علال الفاسي حتى نهض من أريكته مسرعاً وسار نحوه للسلام عليه ومعانقته والترحيب بمقدمه، نظراً لما كان له رحمه الله من شهرة طبقت الآفاق كواحد من علماء الإسلام ومفكريه الكبار، وقائد من قادة حركات التحرير في العالم الإسلامي وغير الإسلامي، واستدعى هيأة التدريس للسلام عليه والتعرف به، وجرت بيننا وبينهم أثناء تناول القهوة مذاكرات عن الإسلام في تركيا والتعليم الديني بها استفدنا منهم خلالها أن عدد رواد مدارسه يبلغ 36 ألفاً من بين طالب وتلميذ يتولى متخرِّجوهم منها الإمامة والخطابة بالمساجد، والتدريس بالمدارس الدينية الحرة، والوعظ والإرشاد في ثكن الجيش برية وبحرية وجوية مؤكدين لنا أن الإسلام في تركيا بخير ولا خوف عليه، وهو شيء تأكدنا منه بأنفسنا لما شاهدناه بأعيننا فيما بعد من مسارعة التجار إلى الخروج من حوانيتهم للتوضئ بمجرد سماع الأذان الذي تتردد أصداؤه بين الصوامع العالية بأصوات رخيمة، وامتلاء المساجد وقت الصلاة بالمصلين من رجال ونساء وشبان وشابات وصبايا وأطفال، حتى إنهم ليصلون بالطرق والشوارع إذا ضاقت رحاب بيوت الله بالمصلين وكانت عيناي وعينا الأستاذ علال الفاسي تتجاوب فيما بينها، سيما عندما ذكروا لنا أن عدد طلاب المدارس الدينية يبلغ 36 ألفاً، بينما لم يكن عدد طلاب جامعة القرويين بكلياتها الثلاث يتجاوز يومئذ سبعة ءالاف، ثم استدعونا لزيارة حجرات التعليم، فزرنا عدداً منها، ورأينا المعلمين يكتبون الآيات القرءانية والأحاديث النبوية ونصوص الأحكام الفقهية بالحروف العربية، أما لغة التدريس فكانت شبيهة باللغة التي كان الترك يتكلمونها في العهد العثماني قبل الثورة الكمالية العلمانية، أي أنها كانت مزيجاً من التركية والعربية، تكثر فيها المصطلحات العربية كالإلاه والرب والنبي والرسول والقرءان والحديث والملائكة والجنة والنار، ولكنها تنطَق باللهجة التركية، فيصعب على من لم تألف أذنه سماع لغة الأتراك أن يفهمها بسرعة.

ولما حان وقت الافتراق سألناهم عن الأستاذ محمد ابن تاويت

فحصلت صعوبة ثانية بعد الصعوبة الأولى التي حدثت مع سائق السيارة، كان أكثرهم ينكره ولا يعرفه، لأنه رحمه الله كان يدرس بكلية الآداب بجامعة إسطنبول لا بكلية العلوم الإلاهية التي يدرسون هم فيها والأقل الذين يعرفونه منهم كان يعرَف عندهم بالطنجي فقط، والصعوبة المذكورة جاءت من النطق بكلمة الطنجي، لأننا نحن ننطق بحرف الطاء منها مفخماً غليظاً، وهم ينطقون به تاءً رقيقة فيقولون التانجي، ومن هنا وقع الالتباس إلى أن حصل التفاهم بيننا، فكتبوا لنا عنوان مسكنه وأعطونا نمرة هاتفه.

ولما عدنا إلى هلتون اتصلنا به هاتفياً في البيت، وعرَّفناه بوجودنا في الفندق، فجاء يسرع الخطا، ووقع على أستاذنا علال الفاسي وقوع المجدب على الروض، والعطشان على الحوض، ورأينا الدموع تترقرق في عينيه لرؤيته أوجهاً من قومه، وشمه رائحة من وطنه وجلس معنا ساعة من الزمن يجاذبنا أطراف الحديث، لاسيما الحديث عن المغرب الذي كان قوي الرغبة في سماع ما جد فيه، شديد الحنين إلى من خلف فيه من أحباب وأصدقاء، ولم يرد الأستاذ علال أن يَضيع وقتُنا الفارغ في انتظار قضاء الغرض الذي ننتظر قضاءه، فاقترح تنظيم زيارات للخزانات العلمية وأرشيف الصدارة العظمى، بينما استدعانا الأستاذ ابن تاويت لزيارته في منزله الكائن في درب محدودب كدروب طنجة متفرع عن الساحة المسماة بربروس ميدان.

وصباح اليوم التالي التحق بنا في الفندق، فخرجنا معه لزيارة الخزانات العلمية وما أكثرها في عاصمة الخلافة، وأكثر ما فيها مكتوب بحروف عربية، سواء كانت لغته عربية أو تركية أو فارسية، وجله إن لم أقل كله يرجع إلى العهد العثماني، ولم نجد صعوبة في الاطلاع على ما أردنا أن نطلع عليه مما هو ثمين ونفيس من كتب تلك الخزانات ودواوينها، وأُعجِبنا بحسن تنظيمها ومهارة الأيدي التي تتصرف فيها سيما أيدي فتيات ناعمات يقمن بترميم ما رث من أوراق الكتب ودفاتها بأحدث ءالات الترميم وأحسن مواده، بينما اصطدمنا في اليومين التاليين بمصاعب جمة عندما زرنا أرشيف الصدارة العظمى وأحببنا أن نطلع على الوثائق التاريخية المحفوظة فيه والمتعلقة

بالمغرب، فكنا مع موظفيه كمن يضرب في الحديد البارد رغم وجود الأستاذ ابن تاويت الذي يتكلم التركية بطلاقة واستعانتنا به وحده أولاً ثم به وبقنصل المغرب الشرفي في إسطنبول ثانياً، وهو رجل تركي يجيد الفرنسية ويمتهن التجارة، وكان هؤلاء الموظفون يعتذرون إلينا بأن أرشيف الصدارة العظمى غير مفتوح للعموم، وأن الاستثناءات التي تقع أحياناً إنما تقع بترخيص من الدوائر العليا، وقد ازداد تأكدنا خلال ترددنا على هذا الأرشيف أن الإنسان حقيقةً ابن بيئته، لأن الرجال المسؤولين عنه - إداريين وكتبة ونسّاخين - لم تؤثر فيهم العلمانية الكمالية بحكم قضائهم السنين الطوال داخل جدرانه، فبقي الواحد منهم يشبه الأفندي العصمانلي الأنيق أيام الخلافة، لا ينقصه إلا الطربوش اليوناني أو القلنسوة السلافية المسماة قابْلاقْ : بطون منتفخة، وكُسى سود مكمودة، وقمصان بيض ذات أطواق منشاة، ووجوه صباح تتوسطها شوارب محكمة الفتلات، مصعدة السبالت، كأنما أعدت لِتعشش فوقها جوارح الطير فأحرى البغات. واستفدنا خلال وجودنا في الأرشيف التركي أن جميع الوثائق تُنسَخ في كنانيش ضخام بلغ عددها في ذلك الوقت 28 ألف كناش، وأن الناس لا يطلعون على أصول الوثيقة مباشرة، وإنما يطلع من رخِّص له منهم بالاطلاع على نسخها في الكنانيش، فإذا أبدى رغبة في تصوير واحدة أو عدد منها طلبها برقمها أو أرقامها فتصوَّر له تصويراً مطابقاً لأصلها أو أصولها. كما استفدنا أيضاً هنالك أن دولة جارة حديثة العهد بالارتقاء إلى مصاف الدول المستقلة أرسلت وفداً برئاسة أحد وزرائها إلى إسطنبول بعد الاتفاق مع الحكومة التركية، فأقام الوفد الذي كان يتألف من عدة مؤرخين وباحثين جامعيين يتردد على الأرشيف صباح مساء طيلة ثلاثة شهور ولم يرجع إلى بلده إلا بعد أن صور من الوثائق المتعلقة به كل ما ظهر له أنه مفيد لتاريخه ومقوٍّ لذاكرة مؤرخيه.

ولما رأينا أننا لن نحصل من مسؤولي الأرشيف على طائل قنعنا من الغنيمة بالإياب بعدما حصلنا منهم - مجاملة - على وعد بمساعدتنا في المستقبل، فاتفقنا مع صديقنا ابن تاويت على أن يبقى على اتصال بهم، وأعطيته بعض مال مما كان الجلالة الملك أعطانيه ليستعين به على

البدإ بتصوير الوثائق إن وفوا بوعدهم، ولكن لم يصلنا شيء منه لأنهم أخلفوا الوعد دون شك ولم يأذنوا له بالتصوير.

وأعود بعد هذه الذكريات التي هي كالحديث ذات شجون لأتحدث عن مشروع الرسالة الملكية التي ذكرت في بداية هذا الحديث أنها كتبت لتوجه إلى الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي بعد أن يمهرها جلالة الملك بإمضائه الشريف، فعندما رجعنا إلى المغرب عدنا وألسنتنا رطبة بالثناء عليه والتنويه بحسن خلقه وطيبوبة معشره، ولم نكن نخفي نحن الثلاثة مثل غيرنا حسرتنا من وجوده خارج الوطن وحرمان الشبيبة المغربية من الانتفاع من علمه وأدبه، والاستفادة من طريقته في معالجة النصوص وتحقيقها، وبقينا في السنوات الثلاث التالية نغتنم كل مناسبة للحديث عنه والتذكير بسبب هجرته من بلده، وحبَّب إلي عدد من محبيه أن أكلم جلالة الملك في شأن استرجاعه من أرض الغربة، وإيجاد الحل الحسن لمشكلة وضعيته المادية بعد عودته، لأنه أعزه الله وحده القادر على تخطي العقبات المسطرية التي قد تعسر تسويتها مثلما وقع في المرة الأولى، فلما فاتحته ذات يوم في الموضوع وجدت منه حسن تفهم ورضى وقبولاً، وأمرني أن أعد رسالة إليه يمضيها جنابه الشريف ويحملها إليه أحد أوفياء خدامه : الأستاذ أحمد ابن سودة شفاه الله، فكتبت مشروعها على خلاف العادة التي تُكْتَب بها الرسائل الصادرة عن الديوان الملكي في مثل هذه القضية، لأن قواعد البروتوكول تقضي بأن الرسائل المهورة بالإمضاء الشريف أو المطبوعة بالطابع المنيف، لا تكون إلا لرؤساء الدول من ملوك وأمراء ورؤساء ومن في حكمهم من المسؤولين الكبار، فكان مشروع هذه الرسالة الملكية بمثابة الاستثناء الذي يؤكد القاعدة، وفيما يلي نصها :

الحمد للّه وصلى الله على سيِّدنا محمد وءاله وصحبه

محبّنا الأمثل الأرضى، خديمنا العالم النحرير، والأستاذ الكبير الشهير، السيد محمد ابن تاويت الطنجي

أمنّك الله ورعاك وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاتُه

وبعدُ فقد كنا نظن أن رجوعك إلى أرض وطنك ووطن ءابائك وأجدادك يوم عدتَ إليها منذ بضع سنين، رجوع اطمئنان واستقرار لن

يخامرك بعده حنين إلى موطن آخر، ففوجئنا بمغادرتك لبلادك ومفارقتك لعشيرتك وأخلائك، والمعجبين بما أوتيت من مزايا الفهم الثاقب، والبحث الدقيق، والعلم الواسع، والإدراك الصحيح، في وقت وطنك في أمس الحاجة إلى أمثالك من ذوي الدرايات والكفايات القادرين على التكوين والتثقيف ونشر العرفان، بين أشقائك الفتيات والفتيان، وبعث تراث أهلك وقومك من مرقد الإهمال أو النسيان.

وما دامت الحاجة ماسة في وطنك إلى من يضطلع بما أنت كفؤ للاضطلاع به بين شبابنا التواق إلى اقتناء المعرفة على اختلاف أصنافها وألوانها، الحريص على استيعاب ما توفر للعرب والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها من ذخائر الفكر وأعلاق العلم، فإن رغبتنا أكيدة في أن تعود إلى مسقط رأسك للمساهمة في العمل الذي نرمي من ورائه إلى تسليح شبابنا بالمعرفة الصالحة للبناء الوثيق.

وقد كلفنا خديمنا الأرضى السيد أحمد بن سودة سفيرنا السابق وعضو مجلس النواب الذي تربطه وإياك روابط العلم المتينة بأن يتصل بك ويسلم إليك خطابنا هذا ويفضي إليك بالبيان الذي يبسط لك ما أوجزناه وأجملناه.

والرجاء معقود في أن تستجيب للدعوة، وتلبي الرغبة.

أدام الله عليك نعمة العلم السابغة، ويسر لك سبل النفع والإفادة، والسلام.

وحرر بالرباط في يوم الأربعاء 6 شوال عام 1391 هـ الموافق 24 نونبر 1971م

وزيادة في التوثيق، وأداءً لأمانة التاريخ أذكر أن مشروع هذه الرسالة لم يقدر له أن يستوفي شروط الرسالة لسبب لا أتذكره، لذلك بقي مجرد مشروع رسالة في الأرشيف الملكي، لكنه - ككلٍّ مشاريع الرسائل المحفوظة به - لا يخلو من أخبار وأفكار، ويُستأنس ككل الربائد الغميسة والآثار.

وأخلص بعد هذا إلى تراث المرحوم ابن تاويت وذخائر مقتنياته

ونفائس منتجاته، فعندما توفاه الله إليه في أواخر السنة الرابعة والسبعين - على ما أقدر - كثر الحديث عن مكتبته وكتبه، وقيلت في شأن هذه وتلك أقوال وحكيتْ حكايات لا تخلو من مبالغة ومغالاة وأشفق الجميع من أن يبقى تراثه العلمي بدار الغربة مثلما بقي بها جثمانه، واتجهت الأفكار والأنظار كالعادة إلى جلالة الملك حفظه الله ليعمل على إرجاعه إلى المغرب بعد أن قطع الموت الرجاء بعودة صاحبه إليه، وكدأب جلالته المعروف بسبقه إلى فعل الخير ومسارعته إلى إسداء المعروف تفضل لـمّا سمع خبر ءاثار ابن تاويت إلى إيفاد بعثة إلى تركيا لإحصائها وتقويمها والعمل على إرجاعها للمغرب لقاء ما قومت به من ثمن يؤديه من ماله الخاص، وكان الوفد يتركب من ثلاثة أشخاص متمرسين بالكتب والمكتبات، قادرين على تقدير أثمانها المناسبة وإن لم يكونوا من باعتها، وهم الأستاذ الباقعة محمد بن الهادي المنوني، وثانيهم الأديب البليغ عبد الرحمان بن أحمد الفاسي وثالثهم مخاطبُكم عبد الوهاب بن عبد الرحمان بنمصور، فذهبنا نحن الثلاثة إلى إسطنبول عبر باريس وأثينا مملوئي الوفاض بما نفحنا به جلالته من مال، وتمتعنا خلال الطريق وأثناء المقام بما كان الأستاذ الفاسي يشنف به أسماعنا ويقرظها من أخبار ابن زيدون وولادة ونكبة المعتمد بن عباد وما أنشده أو أنشدَ فيه من أشعار أيام سجنه بأغمات كما لم يفتنا أن نداعب أستاذنا الوقور المنوني وباسترسال لما خيِّل إلينا أو تيقنًا أنه لا يحب من متع الدنيا وملذاتها إلا شم النَّشوق، لأننا ما وقفنا بمحطة أو مررنا بساحة من محطات العواصم الثلاث وساحاتها إلا كان همه الوحيد والأكيد أن يبحث عن الدكاكين التي يُباع فيها النشوق ويشم أنواعاً منه قبل شرائه كما يشم ءاخرون روائح العطر قبل اقتناء قنِّينات مما يعجبهم منه. وفي إسطنبول التحق ابنا الدكتور أحمد بنعبود الذي كان يتولى يومئذٍ سفارة المغرب بأنقرة وكان الأمر صدر إليه من قبلُ بالذهاب إليها لُمساعدتنا على ما جئنا لأجله، وتم الاتصال بأيِّم ابن تاويت وكريمته، واستُدعينا للعشاء في بيته الذي سبق لي أن عرفته، فلبينا الدعوة، وبعد العشاء وأثناء شرب الشاي فاتحتُ الأم وبنتها بحديث عن المأمورية التي كُلِّفنا بها لديهم

وكانت البنت التي تحسن الكلام باللغة الفرنسية تقوم بالترجمة بيننا وبين أمها، وشعرنا من الساعة الأولى أن الأم تتحفظ، كأنما تراودها شكوك في صحة أقوالنا رغم وجود سفير جلالة الملك معنا، أو تعتريها تخوفات من حكومتها إذا ما سمعت ببيعها لمكتبة زوجها الراحل وقبض ثمنها الغالي، وما زلنا نفتل لها في الذروة والغارب، ونلين القول ونزين لها حسن الظن بنا حتى لانت وبدأت تسأل عن الثمن بأي عملة يؤدى؟ وعن نقل المكتبة كيف يتم؟ فطلبنا منها أن تختار العملة التي تريد، وطمأنّاها بأن لا خوف عليها من نقل المكتبة، لأنها ستبيعنا إياها داخل تركيا ونحن نتحمل مسؤولية نقلها بوسائلنا الخاصة إلى المغرب وفي الأخير طلبنا منها أن تطلعنا على عينات مما تحويه المكتبة فجاءتنا بصندوق واحد مُكَرْطَن يضم عدداً من ميكروفيلمات جلها لمخطوطات كتُبٍ طبِع أكثرها منذ أكثر من قرن، منها ميكروفيلمات كثيرة لنسخ خطية كثيرة لتاريخ ابن خلدون محفوظة في مكتبات عديدة بالشرق والغرب، وميكروفيلمات لكتب خطية محفوظة في الخزانة العامة بالرباط، ولما سألناها عن الكتب المخطوطة والمطبوعة أجابتنا بأنها موجودة في مكتبه بالكلية، فودّعناها وانصرفنا، وذهبنا في الغد مبكرين إلى الكلية لنرى ما بها من كتبه، فلما فتح لنا أحد القيومين باب المكتب ودخلناه لم نجد به إلا عدداً قليلاً من كتب التاريخ واللغة والأدب البالية المستعملة، كـ «نفح الطيب» و«صبح الأعشى» و«تاريخ» ابن خلدون و«القاموس المحيط» مما قدر ثمنه بخمسة آلاف درهم، فرجعنا أدراجنا إلى الفندق مستغربين، واجتمعنا بالمرأة بعد ذلك وسألناها عن الثمن الذي تبيع به الكتب الموجودة بمكتب زوجها الراحل في الكلية فطلبت ثمانية عشر مليوناً بالعملة الصعبة، فافترقنا ونحن في حيرة من أمرها، وقلنا لا بد أن هناك سراً لـمّا ينكشف لنا، ثم عدنا إلى المغرب فسمعنا فيما بعد أن المكتبة بيعت لجهة تركية قبل سفرنا إلى إسطنبول.

حضرات السادة والسيدات

تلك حكاية الرسالة التي كتبتُ بيدي مشروعها ثم نسيتُها إلى

أن عثرت عليها فاستحضرت قصتها، وتلك أيضاً ذكريات عن علاقتي بابن تاويت في حياته وبتراثه بعد مماته، رويتها بشيء من الإطناب والتدقيق فِعْلَ كل مؤرخ موثق، مخللةً ببعض التشبيهات والملح على سبيل الإحماض والتظريف، والمؤمل قبل كل هذا وبعده أن تضع المؤسسات الثقافية بطنجة في مقدمات مشاغلها مستقبلاً البحث عن تراث الرجل في دار هجرته، والسعي لطبع ما يُعثَر عليه منه بعد نقده وتحقيقه، وذلك في نظري أكبر خدمة تسديها طنجة لرجل فذ خالد منسوب إليها، يذكِّر بها كلما نطق لسان باسمه، وأشادت مؤسسة علمية بعلمه، وتحلت مجلة ثقافية برسمه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته